قراءة في الأمثال الأمازيغية

بالأطلس المتوسط

سعيدي المولودي

1-المثل شكل من أشكال التعبير الأدبي والفني الشعبي، غالبا ما يتخذ شكل جمل قصيرة تنبني على مبدأ الإيجاز والتكثيف الدلالي، ويتضمن في جوهره ضربا من القياس أو التمثيل أو التشبيه، يقوم على أساس المقابلة بين واقعتين أو حادثتين تشكل إحداهما ضمن سياق المقابلة النموذج أو "المثل الأعلى: بينما الثانية نسخة تابعة لها أو ينبغي أن تكون كذلك(1).

وهو بهذا ينهض بثلاثة أدوار أو مهام متداخلة ومتكاملة هي التعبير المكثف عن واقعة أو حادثة منفردة أو حالة جزئية، وتحويل العبارة إلى رمز، والانتقال من خلالهما بالواقعة من سياقها الجزئي إلى دائرة العام أو الكلي.وقد تتوفر لصيغه المختلفة ضروب من القيم التصويرية ويقف مسافات أقرب منها إلى الشعري أحيانا ، إذ قد ينطوي على إشارات أو دلالات تقع على حافاته وتستعير بعضا من معالمه أو مقوماته، كالإيقاع أو الصورة مما يتيح له وجه محاكاته أو التمادي معه،كما أنه يقف مسافات أقرب إلى الحكمة بمعناها العام أي الوعي المكثف الذي يختزن الحقائق أو يرصد أبعادها ويؤسس إطارا عاما لنظرة خاصة للعالم والوجود. ولا يعني هذا أن المثل قد يمثل أيا من الفنين أو الشكلين وينهض بوظيفتهما إذ هو على الدوام يخضع لمجموعة من القواعد التي تساعد على استقلاله وعلى الاحتفاظ بكيانه الخاص مهما تراءى أن هذا الكيان تتنازعه أشكال تعبيرية أخرى أو تتقاطع مع خصوصياته وترتدي بعض ملامحه.

وباعتبار المثل شكلا لغويا وأدبيا وفنيا فإنه بالضرورة محكوم بآليات تطور المقومات الأدبية و الفنية والجمالية، ومتصل اتصالا متينا بمستويات معرفية وثقافية تعكس الشروط التاريخية والاجتماعية والثقافية التي تؤثر في نموها ونضجها وتؤسس لخصوصياتها المتباينة. وهو على هذا الأساس خلاصة تجارب وممارسات ثقافية معرفية اجتماعية خاصة وعامة، وقد يكون دوره هو نقل هذه التجارب الخاصة أو الفردية إلى مستوى العام وتحويلها إلى تجربة اجتماعية تاريخية وفق استراتيجية وعي خاص

تتحكم فيه مجموعة من العوامل والشروط والأبعاد. ولذلك فإن المثل "نص" ينتمي إلى سيرورة تاريخية أو اجتماعية وحضارية معقدة تتداخل فيها عناصر ثقافية واجتماعية وفنية وينفتح الوعي أو الإدراك من خلاله على السياقات أو المنظومات الثقافية المحيطة به، ومن ثم يسوغ القول إنه يجسد مظهرا متميزا للوعي بالواقع وشؤون الحياة اليومية والأحداث الجارية في صيرورة هذه الحياة ومتغيراتها، وإدراك القضايا والمشكلات الإنسانية التي تسمح لأي جماعة بتوجيه وجودها الاجتماعي وضبط نشاطه العام ووصله بأهداف واضحة.

وبقدر ما يتضمن المثل عناصر استيعاب الواقع الموضوعي والتاريخي وتمثله ومظاهر الوعي بشؤون الحياة والسلوك الاجتماعي والعلاقات المحتملة بين أفراد المجتمع في مختلف مجالات النشاط الإنساني والقيم الأخلاقية والثقافية المرتبطة بالوجدان الجماعي وكل ما يرتبط بواقع وظروف العيش، يتمثل كذلك إطارا لاستيعاب المعارف والخبرات الإنسانية عن الطبيعة والكون ضمن إطار نسبي، لأن المثل في النهاية إنما هو صيغة تعبير جزئي، في الوقت الذي يعكس فيه الكثير من صفات وخصائص العلاقات الاجتماعية بمختلف أوضاعها وحالاتها وتناقضاتها.

ويتمتع المثل بسلطة لغوية وبيانية واجتماعية في النهاية إذ يعتبر اعتماده حجة أو دليلا حاسما، وبمعنى ما يمثل وجها للكشف عن الحقيقة أو بلوغها وتأكيدها أو ترسيخها. إنه جزء من أيديولوجية الإقناع، وتوظف كلماته وكأنها ذات قوة سحرية حاملة لقوة أو سلطة معينة، ومن هنا يشكل سلاح المتكلم في مواجهة مخاطبه وإفحامه وإرغامه على السكوت أو الإقناع أو الاستسلام ، فحكمه أو سلطته لا ترد، وتوظيفه عمليا ينطوي دائما على صيغ حسم أو تأكيد أو تكريس لموقف أو حكم معين مهما ظل ذلك ينطوي على تجاهل أو إخفاء مواقف أخرى. وفي الثقافات الشفوية يحتفظ المثل بمعالم هذه السلطة، وربما تجد هذه السلطة مبرراتها فقط في ظل هذه الثقافات، وعليها يتوقف تكريس كثير من القيم السائدة وترسيخ تجارب الأسلاف المختزنة كأداة لاستيعاب الواقع والتأثير فيه، ومن هنا الطابع التعليمي أو التهذيبي للمثل(2).

المثل أخيرا هو تعبير له أبعاده الثقافية والاجتماعية والتاريخية ينهض بدور مركزي في تثبيت الخبرات والمدركات وترسيخ العادات والتقاليد السائدة بين أفراد المجتمع في مراحل تاريخية معينة والتعبير عنها برموز مشتركة من خلال تحويلها إلى مدركات مشتركة.

2 –استنادا إلى المواصفات التي استعرضناها يبدو أن محاولة استقصاء المضامين أو الموضوعات التي وظفت فيها سياقات المثل الأمازيغي ليست بالمهمة اليسيرة، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار محدودية

النماذج التي اعتمدناها ومحدودية أنساقها ومضامينها، بحيث لا تجسد في الواقع إلا نماذج أولية، وما زال الطريق أمامنا مفتوحا للجمع والاستقراء، لكي نستكمل أو على الأقل نقترب من صورة الاكتمال، مما يتأتى معه التصنيف الشامل لموضوعات ومضامين و مختلف دلالات المثل الأمازيغي، مع الأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات والتنوع المحتمل داخل هذه الدائرة، إذ المثل يستقي موضوعاته من صلب المشاغل الكبرى المادية والثقافية والفكرية للإنسان الأمازيغي، وتختلف أنماطه وسياقاته باختلاف المناطق الجغرافية والخصوصيات الاجتماعية والثقافية حيث تسهم "الشفوية" في تعدد وتنوع متغيراته ومضامينه.

وانطلاقا من عناصر المضمون يمكن تصنيف المثل الأمازيغي صنفين: الصنف الأول يتضمن نماذج تستمد مضامينها من مرجعية خاصة هي الحكاية أو الخرافة أو الأسطورة بشكل عام، أو حوادث ووقائع محتملة أو مفترضة تعكس ضربا من التجربة في مجال من المجالات. أما الصنف الثاني فيتماس بمعنى ما مع مقتضيات أسلوب الحكمة- بالمعنى العام- وخصائصها الجمالية والثقافية، وقد لا يخلو من الاستناد على حوادث أو وقائع خاصة غالبا ما يوحي سياقها العام بأنها نتاج تجربة حقيقية ومعيشة.

من النماذج المرتبطة بالصنف الأول أمثال تستمد عناصر بناء مضمونها من الحكاية على ألسنة الحيوانات، وهي أمثال كثيرة ، ومعلوم أن حكايات الحيوان تنهض عمليا بوظيفة "التفسير"، تفسير كثير من القضايا التي شغلت الفكر الإنساني في مراحل مختلفة من تاريخ تطوره، ويتجه هذا التفسير في الغالب اتجاهين الأول تفسير الظواهر المتعلقة بعالم الحيوانات ذاتها في ما يعود مثلا لأشكالها وألوانها وصفاتها وأحجامها، والثاني تفسير بعض ظواهر الكون الطبيعية أو الاجتماعية عن طريق توظيف الحيوان كرمز في هذا الباب ، ليغدو وسيلة لتفسير واقع بعيد عنه. وقد تحدث الأستاذ محمد شفيق في المعجم العربي الأمازيغي عن قصة الحيوان الأمازيغية وأشار إلى أنها هي " الأصل الذي صار محكيا مقلدا طوال العصور لمدة أكثر من ألفي سنة"(3)، ورجح أنها انتقلت إلى الأدب الإغريقي الشعبي القديم قبل أن يتسع مجال انتشارها، غير أن ما يمكن التشديد عليه هنا هو أن الحكاية الأمازيغية تفاعلت بشكل قوي مع الثقافات الأخرى المتوسطية وهي جزء من فضاءات سياق التفاعل والتمازج والتلاقح بين كل هذه الثقافات وأشكالها الأدبية والثقافية.

ومن الأمثال التي تتصل مضامينها بالحكاية الخرافية، نعرض هذه النماذج:

1- كانْ أمْ (يعقوب) ذْ (إسحاق):(مثل يعقوب وإسحاق) والمثل كما يظهر من صيغته البنائية غايته الدلالية هي التشبيه، والحكاية التي يستند إليها تقول: كان يعقوب وإسحاق طفلين صغيرين

يعيشان في كنف أمهما في دعة ورغد، وكانت والدهما طيبة القلب والمعشر، وذات يوم فضل عليها بعض طعامها فرغبت أن تبعث به إلى إحدى جاراتها، وكانت تلك عادة معروفة عنها، أوكلت المهمة إلى ولديها، ومضيا إلى هدفهما في أمان. وأثناء الطريق استهوتهما أحلامهما الصغيرة الشقية، وشغلتهما عن مهمتهما، ونسيا الأمانة الملقاة على عاتقيهما، وانغمسا في اللهو واللعب، وعاثا فسادا في الطعام. وخيبا ظن أمهما فيهما.و في المساء عادا إليها حزينين، و لم يجدا بدا من الاعتراف بحقيقة فعلهما، فغاظها ذلك، وغضبت غضبا شديدا، ودعت عليهما قائلة: جعلتكما الآلهة في غصن واحد، بحيث لا يرى أحدكما الآخر. واستجابت الآلهة لدعوة الأم. مُسخ الطفلان طائرين صغيرين يقعان معا على الغصن الواحد وكل منهما ينادي أخاه فلا يكاد يسمعه أو يراه. وقد وظفت عناصر الحكاية في بيت شعري أمازيغي من شكل "تاماوايث" مشهور هو :

آذْرُوخْ إيوا رُو كاخْ ثِنْ إيجْظاظْ آياسْمُونْ قّاري يعقوبْ آلْ ثْقّارْخْ

(سأبكي ولتبكِ، يا حبيبي، مثل طائرين نادِني يعقوب، أناديك)

والمثل يوظف في المواقف التي تنعدم فيها أسباب التواصل أو التفاهم بين الأطراف، وتتباعد احتمالات التوافق أو الالتقاء أو التوفيق بين الآراء والمواقف، و تضعنا الحكاية كما هو واضح في صلب إحدى قصص الخلق ، خلق الطير، وفي بعض مناطق الأطلس المتوسط طائر معروف يطلق عليه اسم "يعقوب" يردد في زقزقته أصواتا تكاد تتطابق مع إيقاعات لفظة "يعقوب".

2- لاَّيْ ثْقْرا ثِي وْ هاقّارْ: "أحذر من غراب" والمثل يحيل على قصة الغراب وابنه، إذ يحكى أن الغراب كان يعلم ابنه البكر مخاطر الحياة ويدله على أساليب الحيطة والحذر من بني الإنسان، القناص، العدو المحتمل، ومن جملة ما أوصى به الأب ابنه تنبيهه إلى أن الإنسان وإن لم يكن ذا سلاح فسيعمد إلى حجر يرميك به، وسينحني نحو الأرض في لحظة ما ليلتقطه قبل أن يرميك به، فإذا فعل فاعلم أنه يستهدفك. فكر الصغير في وصية أبيه فسأله ومن يدريني، يا أبتي، فقد يكون حاملا للحجر قبل أن يظهر وأراه عيانا. ويوظف المثل في المواقف التي يكون فيها المرء مبالغا في تقدير أسباب الحذر ومكامن الحرص، ويراهن على تخمينات أو احتمالات ليس لها ما يبررها وقد لا يستدعيها سياق الوضع الذي يواجهه.

3- ثيمْطّاوينْ وُو شّنْ:(دموع ابن آوى) والحكاية تقول: حين ارتحل الأهل يبحثون عن مرابع الكلأ، وضعوا الحملان الصغيرة على متن حمار لهم، وكان في الطريق آخر من يقود السير والقافلة، واستوقفه في لحظة ما مشهد ابن آوى منهك وصريع على جانب الطريق، متألما، يبكي متأثرا، ويتوسل العابرين ،

فهزه الفضول وسأله، فشكا له ابن آوى مصابه، وأن جراحا أليمة أنهكته وحالت بينه وبين مواصلة السير نحو مخبئه، فرق له قلب الحمار، وسأله ما إذا كان بإمكانه أن يقدم له يد المساعدة، فاستبشر ابن آوى خيرا، وقال له: إن طريقك هي وجهتي، فاحملني معك، حتى أصل مأواي. اغتر الحمار بكلامه ووافق على حمله، فوثب ابن آوى واستقر على متن الحمار، ووجد ضالته المنشودة وشرع في افتراس الحملان الوديعة، وكلما لاحظ الحمار قطرات الدم المنسابة، بادره ابن آوى بالشكوى، والادعاء بأن جراحه تؤلمه إيلاما، وتفور منها الدماء ويتظاهر بالبكاء والنحيب، فيهدأ روع الحمار، ويواصل المسير. ولما أتى ابن آوى على كل الحملان الصغيرة قفز من عل ظهر الحمار، ساخرا من سذاجته، وأطلق قوائمه للريح. وينطبق المثل على كل من يتظاهر بمظهر الضعيف المسالم والمهادن بينما الطوية غير ذلك، إذ يضمر في أعماقه الشر والسوء والعدوانية ويتحايل فقط لانتهاز الفرصة، وكل من يظهر العجز والضعف في سبيل الوصول إلى ما يتمناه أو يريده .

4 – إِيلاً بابا إيسرَّمْ إيفْكًّاكنْ:(إن أبي ما يزال ينحت النول) وتقول الحكاية إن رجلا صالحا خرج وابنته إلى غابة مجاورة في رحلة بحث عن نول (منسج).وكانت البنت الصبية مسكونة بالأمل، والأب يدغدغ عواطفها. وفي عمق الغابة صادفوا أسدا، وفتح باب الصداقة معهما وأبدى رغبته في التعاون معهما ومد يد المساعدة لهما، ورحب بهما في مملكته الآمنة، واغترا بمكره وتجاهلا غاياته وما يروم من وراء إبراز أمارات الأنس واللطف. ولكي يصل مبتغاه أدرك أن لا مناص من الفصل بين الأب وابنته، ليستمتع بافتراسهما كل على الحدة، وكذلك فعل، استفرد بالأب وفرق بينه وبين فلذة كبده، ورافقه بعيدا عن مرآها، وترك البنت البريئة على حافة الانتظار. سار به عميقا في هدوء الغابة ورهبتها، واتسعت دائرة الانتظار في عيون الصغيرة ، ومن حين لحين تسمع خشخشة الأوراق المتساقطة تقطع عليها صمتها، يباغتها ملك الغابة ويهديء من روعها مخادعا، فيهدأ ذعرها، وهي تردد أن أباها ما يزال ينحت النول، ويرسو حلمها على مزيد من الانتظار والنول الموعود، وهي لا تدري أن نهايتها لن تكون أحسن من نهاية أبيها وأن الأسد قد فتك به.

ويطلق المثل على المواقف التي يكون فيها الانتظار غير مجد ونتائجه معروفة مسبقا، أو في سياقات انتظار الذي لا يأتي، أو العِوَل على ما لا ترجى منه فائدة ولا تقوم له قائمة.

5– أُورِيللِّي وَوَالْ آلْ تَّارو ويسْ إيتكْرارينْ (ويس إيتْ بْنَانينْ): (المشكلة الحقيقية لن تقوم إلا مع حضور الذين نصبوها)

والحكاية تقول إن ابن آوى والقنفذ بينما كانا يسيران – وهما عادة في الحكايات الأمازيغية صديقان وأبطال كثير من الوقائع والأحداث والمغامرات – إذ وقع ابن آوى في مصيدة، واحتار في أمره، وشكا حاله لصديقه الحكيم فأجابه : المشكلة في الحقيقة لن تبدأ إلا مع حضور الذين نصبوا المصيدة. حيث ستكون نهاية ابن آوى المشؤومة، ويقع طريدة بين أيديهم. ويوظف المثل في المواقف التي تكون فيها النتائج معروفة بناء على ما يتوفر من مقدمات أو معطيات أولية ترسم خط نهاياتها.

6- أُونَّا مِي يَلَّا بَّاسْ أُوغا يْتَنْباظْ مَمِّيسْ: (لا سلطة للابن مع وجود أبيه) أو (لا سلطة للفرع مع وجود الأصل) والمثل يحيل إلى حكاية يمكن إجمال وقائعها كالآتي: يحكى أن أحد أسياد القبيلة وفد عليه ضيوف على حين غرة، واحتارت حليلته في قِراهم وما ستقدمه بين أيديهم لتنال رضاهم، وترددت كثيرا قبل أن تستشير زوجها الحكيم، فسألته أيهما أولى بالتقديم "اللبن" أم "السمن"، فأجابها قائلا : لا سلطة للابن مع حضور أبيه. وأدركت الزوجة مرامه، إذ اقترح عليها عمليا تقديم اللبن بدل السمن. ويسري المثل على كل الحالات المماثلة المتصلة بمجال تقديم الأصول عن الفروع، وغير مستبعد توظيفه كذلك في سياق الدلالة على البخل إذ ربما كان تقديم "السمن" كما هو سائد أمارة على الجود والكرم أكثر من "اللبن"، وأقوى دلالة على طبع السماحة والعطاء.

7- لاَّيْتْ رْزَا إيغَصْ ذاتْ تُّوثيل: (يكسر القتَب قبل الأرنب) وتقول الحكاية إن جماعة من الفرسان كانوا في طريق غير ذات زرع ،لا ماء فيها ولا شجر، وانتبهوا على جانب الطريق غير بعيد من خطواتهم إلى أرنب جاثم يغط في سبات عميق، وتداولوا أمر الانقضاض عليه وصيده، وبعد أخذ ورد ومشاورات، رأوا أن لا أهمية للقبض عليه واصطياده ما دام الحطب منعدما ومفقودا في أرجاء المنطقة القريبة، وفي ما هم كذلك إذ تقدم أحدهم باقتراح يراه الحل المناسب للمشكلة، حيث تطوع لكسر سرجه، فهوى على قتبه وكسره، وأضرم فيه النار. ولما حاولت الجماعة القبض على الأرنب الرابض لم يفلحوا، إذ سابق الأرنب الريح وترك الجميع ملوما محسورا. ويطلق المثل في سياق المواقف التي تقدم فيها النتائج على المقدمات والأسباب أو سياق التعجيل بما ينبغي له أن يؤخر، وفي مجال سوء تدبير الأمور وقلبها رأسا على عقب.

أما الأمثال من الصنف الثاني والتي افترضنا أنها تنطق بالحكمة وربما كانت أقرب إلى آلياتها وتزخر بكثير من مقوماتها، وتجسد مستوى من نظرة خاصة للعالم مؤسسة على التجربة الذاتية والخبرات الشخصية المختلفة، فهي لا تختلف في سياقها عن النماذج السالفة إلا من حيث المرجعية التي يحيل إليها كل منها، وهو ما يعني أن مسألة تداخل مضامينها وحقولها الدلالية أمر وارد. على أنه لا بد

من التأكيد أن البعد الحكمي أو خطاب الحكمة ثابت في صلب كل النماذج، إذ إن هذا الخطاب هو جوهر المثل الدلالي .

ويصعب في هذا الباب أن نستعرض أو نستوفي كل المجالات أو الموضوعات التي خاضت فيها هذه النماذج، أو القضايا التي عالجتها و حاولت أن تصور بعضا من حقائقها أو التعبير عن مظاهرها أو المواقف التي تستدعيها لأنها في النهاية ترتبط ارتباطا وثيقا بقواعد الحياة والنظام الذي عليه حياة الناس في معاملاتهم الخاصة والعامة وهي قواعد تتغير في ما بينهم وتختلف أبعاد رؤيتها أو تقييمها أو الحكم عليها بالنظر إلى المحيط الطبيعي والثقافي والاجتماعي الذي تنشأ فيه، إذ هي بالضرورة خاضعة لمؤثرات شتى لعل في مقدمتها طبيعة الوعي ومستويات الإدراك أو التصدي للقضايا الكبرى ذات الأهمية بالنسبة لتطور المجتمع عبر مختلف أوجه الفاعليات الإنسانية المتوفرة. ونستعرض في ما يلي بعضا منها:

1- في مسألة الاعتماد على النفس وأهمية توظيف القدرات والإمكانيات الذاتية لتحقيق النجاح:

* إينَّاسْ بِيلْفْ: آمْخيبْ أُوراسْ تيغْزي أُو غَنْبوتَّسْ: (قال الخنزير: التعس من لم يحتفر له نابه)

2- في التهور وعدم الحذر وأخذ الاحتياطات حين الإقدام على أمر من الأمور:

* ما يي حارْصنْ إ يما يعْنيخْ ذْنَكّ لاَّ كيخْ لا باس: (ما حملني للسقم وأنا المعافى)

* مايْ شِي حارْصَنْ آبُو رْبُوذْ إيوانْسا تْكِّينْ إيلَغْمانْ : (ما حملك أيها الحلزون لمعبر الجمال)

وتوظف دلالات هذه الأمثال أيضا في ظل أوضاع يكون المرء فيها غير قادر على المواجهة أو التصدي لموقف من المواقف ومع ذلك يتظاهر بالقوة والقدرة على المواجهة.

3- في القيام بأعمال لا طائل من ورائها، ولا يمكن أن تنجم عنها أية نتائج إيجابية:

* لاَّ يْ تَرْغي ثانْدا: (يستدفيء الغدير)

*لاَّثْ نيكَّارْ ما نيكْ أُو رْتَمْغوينْ:(يزرعها حيث لن تنبت)

4- في المسؤولية الشخصية وتحمل عواقب الأعمال ومسؤولية كل ما يقوم به المرء:

* كو ثيخْسي أو غتَّاكْلْ خسْ سيكْ ثْباشَّرْتنَّسْ: (كل شاة لا تعلق إلا من كوعها)

5- في الاتفاق أو التطابق بين مواقف متشابهة أو متكاملة، أو الانسجام بين أشخاص معينين تجمع بينهم صفات مشتركة، أو تجمعهم أهداف مشتركة:

* ثوفا ثْكلْزيمْثْ أفوسنَّسْ.(وجدت القدوم نصابها)

6- في لاجدوى المبادرة الفردية والتشجيع على العمل الجمعي:

* أوغايْ سكَّارْ إيدَّجْ أُومْنايْ آكذْرورْ :(الفارس الوحيد لا يثير الغبار).

7- في باب التقليد والتبعية المطلقة، أو انعدام الاستقلالية في اتخاذ القرار:

* ما نيسْكْ إيكًا إيسَكْني إيكِّيثْ إيفيلي: (منفذ المسلة هو منفذ الخيط)

8- في موقف الادعاء والتظاهر بالقوة من موقع غير مناسب:

* أوعَرْ إيمْناينْ واشالْ. (ما أشجع فرسان الأرض) ويطلق المثل أيضا على الأوضاع التي يمارس فيها النقد دون الأخذ بعين الاعتبار كل العوامل المحيطة بالموضوع المنقود.

9- في مؤاخذة البريء بما اقترفه غيره:

* إيكاتْ أوشُرْذو ثفَّغْ كْ ثيشْتْ: (اقترفها البرغوث وتجازى القملة)

3-على ضوء النماذج التي استعرضناها واشتغلنا عليها يمكن القول إن البناء التركيبي للمثل الأمازيغي يقوم على مبدأ استثمار صياغات نمطية أو قوالب خاصة هي التي تعتمدها أساليبه، وهذا في اعتبارنا ربما يعود إلى طابع الشفوية التي تميزه، إذ تضمن تلك الصيغ صيرورته وترعى تحولاته وتجديد أساليبه ضمن أشكال بنائية تتأرجح بين البساطة والتعقيد، والوضوح والإبهام، وتمنحه المناعة في حدود ما، لكي لا يفقد بعض سماته ومعالمه، بما يضمن حياته ورحلته عبر الذاكرة الجمعية التي هي قناته الدائمة ومنطقة عبوره الدائم. على أن هذه الصيغ أو القوالب ليست نهائية أو إطار ا مغلقا لإنتاج المثل خاصة وأن بنية المثل ذاتها ترفض هذا المستوى من الانغلاق.أما بعض الصيغ التي تحددت لدينا معالمها فيمكن إجمالها في ما يلي:

1- صيغة تقوم على التجريد والتعميم والشمول، بالاعتماد على لفظة"كو" التي تقابل لفظة "كل" العربية والتي تفيد استغراق الجنس، ومن نماذجها:

* كُو بِيزَمْ عاريْنْسْ آيثْ إيسَّكْمانْ: (كل أسد ابن أجمته)

* كو أَبَاوْ إيلاَّ سُو مْشَالنَّسْ.(كل فول وله كياله)

2- صيغة تعتمد الجملة الموصولية التي غالبا ما تتألف من الأداة "أوتَّا" "أونّ" (من) وجملتين تقومان بعدها بدور التحديد أو التخصيص من خلال حصر الصفات أو الأفعال، يمكن اعتبار الجملة الأولى منهما شرطية، والثانية بمثابة جواب للشرط، ومن أمثلتها:

* أونْ خَفْ إيكًا إيفيغَرْ لاَّ يْتْكوذْ أسْغُونْ: (من لدغه الثعبان يخشى الحبل)

* أونْ إيوْثَنْ إخْفَنَّسْ أوغايْتْرو:(من ضرب نفسه لا يبكي)

3- صيغة تقوم على توظيف جمل فعلية تبتديء إما بالفعل المضارع أو الفعل الماضي أو الفعل الأمري، وتؤشر في كل الأحوال لدلالة استمرارية الفعل:

* لاَّ يْسَّاغْ إيسَلْمَانْ كِّيللْ:(يبتاع السمك في البحر)

*إيهْذا وُوشَّنْ تَّاغاطْ: (ارتعى الذئبُ والمعزى)

*أوثاتَنْ خَفْ وَّاليمْ آذْ تُّون ثيمْزينْ: (اضربوهم من أجل التبن لينسوا الشعير)

4- صيغة تعتمد أسلوب (الحكي) الحكاية، ويتصدرها الفعل " إينَّاسْ" (قال أو قيل):

* إينَّاسْ أوجْرُو مشْذْ أمانْ أغاتيِّسَّاقومنْ للِّيخْ ذيكْسنْ: (قال الضفدع:إذا كان الماء هو الذي سيُفني العالم،فأنا أحيا فيه)

5- صيغة تقوم على جملة النفي وتوظف فيها الأداة"أُورْ":

* أُورْ ذا يْتَّاكمْ إينْكرْ يِيشَّرْ ذو كْسومْ خَسْ إيرْشَانْ: (لا ينفذ بين الظفر واللحم غير الأدران)

- أور ذيكْسَنْ أمَلاَّلْ أمي شورْذَانْ:(ليس فيهم أبيض كالبراغيث)

6- صيغة تعتمد سياق الظرفية من خلال الأداة "مَانِيكْ"- بالكاف المعقودة -:

* ما نيكْ عَدَّانْ أوغا قَّازْنْ: (حيث كثروا لا يحتفرون)

* مانيك زْدْمَخْ آيتْ لقَّاطْ إيكْشُّوظَنْ: (حيث احتطبت، أنت تلتقط الأعواد)

7- صيغة تتأسس على الاستفهام:

* ماسْ نينَّانْ إيْعْداوَنْ ذَاليمْ: (من قال للأعداء : إنه التبن)

* ما ييسِّيوْضَنْ إيما يعنيخ ذْنَكْ لاَّ كيخْ لاباس:(ما حملني للسقم وأنا المعافى)

على أن هذه الصيغ ليست في النهاية قوالب نهائية تتحرك فيها سياقات بناء المثل وتشكيلاته، فثمة بالتأكيد صيغ أخرى متعددة، خاصة وأن المثل هو جزء من اللغة الجارية لغة سواد الشعب، ولذلك تظل صياغاته البنائية مفتوحة على احتمالات أوسع مما يمكن أن تستوعبه هذه الأنماط التي حددناها.

وتتيح لنا هذه النماذج تسجيل الخلاصات الأساسية التالية:

- إن المثل في الأدب الشعبي الأمازيغي يجسد عمليا أبرز مكتسبات الوعي الأمازيغي ضمن ما تملكه الثقافة الأمازيغية من مقومات ومن عناصر تكوينية تؤسس لنظرة خاصة للعالم.

- بسبب من الطابع التعليمي للمثل، فإنه يتراءى أحيانا وكأنه يتأسس على منطق الاصطفاء، وهذا الاصطفاء ضروري من الناحية الموضوعية لأنه ينهض بمهمة تصنيف مركبات الوعي الممكنة من أجل ترسيخ مجموعة من القيم السائدة أو التي يراد لها أن تسود.

- إن مواد إنتاج المثل كما هو واضح مستقاة من صلب الواقع المعيش للإنسان الأمازيغي، وعمق تراثه الفني والثقافي والجمالي.

– إن المثل الأمازيغي عبر نماذجه التي تستمد موادها ومقوماتها من الحكاية على لسان الحيوان يؤشر بشكل واضح لمظاهر واحتمالات التفاعل القائم بين الثقافة والحضارة الأمازيغية والثقافات الإنسانية الأخرى خاصة وأن كثيرا من الحكايات معروفة لدى كثير من الشعوب في أغلب بقاع العالم. وهو ما يؤكد عامل الانفتاح الذي يشكل أبرز سمات الثقافة الأمازيغية ومظهرا من مظاهر أصالتها.

هوامش

1-انظر بالخصوص : – نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي. دار نهضة مصر. القاهرة. بدون تاريخ. ص: 138 وما يليها.

– ناهض قديح: الأمثال العربية :دراستها ومصادرها.مجلة "الفكر العربي"(ملف ثقافة شعبية)،العدد 49.ديسمبر 1987.

– ميخائيل عون: رسالة موجزة في الأمثال اللبنانية.مجلة"الفكر العربي"(ملف ثقافة شعبية)،العدد 49.ديسمبر.1987

2 – انظر: نبيلة إبراهيم: المرجع السابق ص:140.

3-محمد شفيق: المعجم العربي الأمازيغي.أكاديمية المملكة المغربية: سلسلة معاجم. مطبعة المعارف الجديدة.2000. الجزء الثالث ص:478.